

عشق جميل وبشينة

كل ما قرأناه عن جميل ، أو قرأناه من كلام جميل ، يدل على طبيعة العلاقة التي كانت بينهما ، وهى العلاقة التى تكون بين الرجل والمرأة وتتدخل فيها الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل ، أو هى العلاقة التى نسميها العشق والغرام .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئاً من تقييد الإرادة قل أو كثر . فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره ، والشريك لا يفارق شريكه وله مندوحة عن فراقه ، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق . ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد ، فالذى يتعاطى دواء ينفعه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، والذى تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، ولكن الفرق بين تقييد الإرادة فى الحالتين واضح كل الوضوح .

ففى الحالة الأولى يفكر الإنسان فى العواقب وفى المنافع فلا يقدم على الامتناع .

وفى الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء.
بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلى يقيناً بفائدة الامتناع ثم
لا يمتنع ولا يفلح أحياناً لو حاول الامتناع.
وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها «الهوى» والقيود
التى يفرضها رأى أو المصلحة.

فالتدخين «هوى» من البداية إلى النهاية، وعندما يبدأ
الإنسان فى تعود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد الهوى
إن صح هذا التعبير، وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول
الطعام، أو يتناول حتى اللون المحبوب لديه من ألوان الطعام.
وتعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ولا سيما الهوى الذى
نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام.

لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر، فهو مقيد بهذا
الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان.
ثم يتقيد الشخصان معاً بإرادة النوع كله أو بالإرادة القاهرة
التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيراً على إرادة
العاشقين، وإن اتفقا على حالة من الحالات.

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب
والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية.

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التي تتاح على وفاق الهوى أو لا تتاح.

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقيد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه.

وقد يبلغ به هذا التقيد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلاً عن أن يعلمه ويعجز عنه، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين، ولا غنيمة لأحد منهما في الانتصار، إذ هو انتصار لا يخلو في الحالتين من خسارة.

وينتهي به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه.

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناء فيها، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها.

ومثله في ذلك مثل المدمن الذي يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها، ولكنه يقلع عنها فلا يقر له قرار، فيمضى فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة.

وقد قيل لجميل كل سبب يوجب عليه ، لو ملك اختياره ، أن يسلو بثينة ويقلع عن هواها ، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع ؛ ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبة عنده للتفكير فى السلو والفراق.

قال له أبوه «يا بنى ! حتى متى أنت عمه فى ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداها وتريك الصفاء والمودة وهى مضرة لبعلها ما تضره الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلا ، وغرورا ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة... إن هذا لذل وضيم ! ما أعرف أخيب سهما ولا أضيع عمرا منك. فأنشدك الله إلا ما كفت وتأملت أمرك. فإنك تعلم أن ما قلت حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له ، وفى النساء عوض».

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر ، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه.

فإذا علم المرء هذا ولم يعمل به فليس لذلك إلا علة واحدة وهي شلل الإرادة، وأنه في حال كحال المريض الذى لا يملك الشفاء، بل ربما كان شرًّا من هذا المريض فى استسلامه لدائه، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتوسل إليه بوسائله التى فى يديه، ولكن العاشق الذى برح به العشق كما برح بجميل مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء.

وهكذا كان جواب جميل لنصيحة أبيه، فقال له: «إنّ الرأى ما رأيت والقول كما قلت» ثم قال: «ولكن هل رأيت قبلى أحدًا قدر أن يدفع قلبه هواه؟ أو ملك أن يسلى نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه؟ واللّه لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك. وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلام بهم ولو مت كمدًا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه!».

وقال له ابن عمه روق مقالة الند للند الذى يفهمه ويستثير نخوته بالمناظرة فى الفتوة والمقاربة فى السن:

«إنك لعاجز ضعيف فى استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه، أو ذل لا أحبه لك، أو كمد

يؤدى إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها
بعد إعدارهم إليك ، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها
وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها ، وتصبر نفسك عليها
طائفة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت !».

وهذا كلام كله حزم وسداد ، ولكن متى كان الهوى فى
اشتداده إلا مخالفة للحزم والسداد؟
فما نصح أب فتاه بأحكم ولا أصوب من النصيحة التى
سمعتها جميل من أبيه.

وما استثار ند نداءً بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام
الذى قاله له ابن عمه .

لكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء ،
وقال لابن عمه كما قال لأبيه : «يا أخى ! لو ملكت اختيارى
لكان ما قلت صواباً ، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير
لا يملك لنفسه نفعاً» .

أو كما قال فى شعره :

هى السحر إلا أن للسحر رقيةً
وإنى لا ألقى لها الدهر راقياً

وأكد ذلك أوثق التأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يقولون مسحور يجن بذكرها

وأقسم ما بى من جنون ولا سحر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين أردف
هذا البيت ببيت تالٍ يقول فيه:

وأقسم لا أنساك ما ذر شارق وما هب آل فى معلمة قفر^(١)

وإنما يقسم هذا القسم من هو مجنون ومسحور، أو من سماهم
الناس بالمجانين لأنهم لا يملكون ما يريدون، ويوشك أن يكرهوا
إرادة الخلاص لو ملكوه. فهم فى حبهم للمعشوقة التى هم مفتونون
بها على حد قول المتنبى فى افتتان الأحياء عامة بالحياة:

وإذا الشيخ قال أفّ فما ملّ

حياة وإنما الضعف ملاً

لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه، وإنما يشكونه
لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن استطاعوه، وإلا فالبقاء فيه
مع ألمه حين لا يستطيعون.

(١) ذر شارق: أى طلع نجم، والآل: هو السراب الذى يبدو فى المعلمة القفر:
أى الصحراء.

وظاهر أننا - فى قصة جميل وبثينة - أمام عارض نادر من عوارض العلاقة الغرامية، لأن المشاهد المتواتر أن هذه العلاقة تجرى فى مجراها بين كثير من الرجال والنساء، دون أن تصل إلى هذه اللجاجة الموبقة التى وصل إليها جميل.

ولا شك أن الغرائز النوعية أقوى من إرادة الفرد إذا تحكم النزاع بينهما وبلغ مبلغ الصدام الذى لا محيص فيه من الغلبة لإحدهما. ولكن المسألة هى أن الغريزة النوعية والإرادة الفردية لا تبلغان هذا المبلغ من النزاع والصدام إلا لعارض طارئ ليس بالمتكرر فى جميع الأحوال، وهذه هى الندرة التى يدل وقوعها على شذوذ فى الفرد أو شذوذ فى الأحوال التى تعرضت لها علاقته الغرامية.

فالعشق أصيل فى طبائع الإنسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية؛ بل هو أصيل فى طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث، بغير تبديل إلى أمد طويل. ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب، ولا يلزم من خدمتها النوع أنها تمحق الفرد وتتقاضاه حقه من الهناء والحرية فى جميع الأحوال. ولا سيما إذا تحققت

مصلحة النوع بغير هذه التضحية التى لا توجبها خدمة فرد ولا خدمة نوع.

فإذا اصطدمت الغريزة والإرادة الإنسانية على اطراد دائم مدى الحياة فهناك شذوذ لا محالة فى هذه الإرادة أو فى الأحوال التى أحاطت بها ولا يستها، وذلك هو الشذوذ النادر الذى نشاهد مثلاً من أمثلته الواضحة فى قصة جميل.

والأغلب - فيما يبدو لنا - أن علة هذا الشذوذ راجعة إلى جميل نفسه قبل مرجعها إلى الأحوال التى أحاطت به وبمعشوقته بثينة.

فقد اصطلحت عليه أسباب كثيرة توهى من إرادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنة التى غلبته على رأيه.

فكان مدلاً قليل التمرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين، وكان وسيماً تميل به وسامته إلى التصدى لهذه الأهواء والتفرغ لها والوقوف على طريقها، وكان المزاج الفنى - أو مزاج الشاعرية - معواناً له على التمدادى فى هذه الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها، وبخاصة حين أغناه اليسار عن معالجة الشعر فى أبواب المديح والرحلة إلى الأمراء والرؤساء، وكان فارغ الوقت لا تملؤه الشواغل

بما ينسيه أو يسليه أو يقسم وقته بين عمله وهواه، وكان مع هذا ضعيف الرأي قليل الحزم كما ذكرنا فى فصل آخر من فصول هذه الرسالة، وهى أسباب فى جملتها كافية لتعليل تلك الندرة التى جعلته من أبطال العشق المعدودين فى آداب اللغة العربية، ويضاف إليها العصر وأثره والبيئة وحكمها، وكلاهما كان مما يمد فى دواعى هذه الفتنة وينحى بينه وبين وسائل الخلاص منها.

وقصة هواه لبثينة قصة من أراد الوقوع فى الهوى، ثم وقع فيه، وليست بقصة من أوقعته المصادفة وحاول الخلاص من البداية فامتنع عليه.

فكان فى أول عهده بالعشق يهوى «أم الجسير» أخت بثينة الكبيرة، ثم لقى بثينة فشتمته واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن أختها إليها، وذلك إذ يقول:

وأول ما قاد بيننا

بوادى بغيض يا بئين سباب

وربما دل ذلك على خليقة من الخلائق التى نفهم بها لجاجته فى علاقته الغرامية على نحو يندر جداً بين الأقوياء ذوى الغلبة من الرجال.

فمن خلائق بعض الضعفاء أن تغريهم الإساءة والحرمان،
وتزيدهم كلفاً على كلف بمن أحبوا من النساء، ولا سيما المرأة
التي تحسن أن تمزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء، وفي
هذا يقول من قصيدة أخرى:

ولست على بذل الصفاء هويتها
ولكن سبتنى بالدلال وبالبحل

فالسباب استهواه والبخل سباه ولج به فى هواه، وتلك
أبداً آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعليق تلك
الثقة بمشيئة غيره، إن أقبلت عليه معشوقته رضى عن نفسه
واستراح إلى هذا الرضى، وإن أعرضت عنه ظل فى حيرة
وابتئاس لا يزولان إلا أن يزيلهما إقبال جديد، وأما هو فليس
بقادر على أن يستغنى برأيه أو يستمد الثقة من قرارة نفسه،
ولو قدر على ذلك لكان إعراض المعشوقة عنه داعياً من أكبر
دواعى القطيعة والجفاء، وكان فى وسعه أن يعرض عنها
ويكف عن التعلق بها، ولا يضيره ذلك أو يشعره بنقص فى
طمأنينته النفسية، لأنها طمأنينة لا تتعلق بمشيئة سواه.

وفى بعض الضعفاء خليقة قريبة من هذه الخليقة أو هى هى فى مظهر من مظاهرها المختلفة، ونعنى بها «حب التعذيب» والحنين إليه، ومن هؤلاء من يلتمسون الضرب والإيذاء فى بعض الأحيان ويسعون إليه، وقد يستأجرون من يضربهم ويوقعهم كما يصنع أناس من أصحاب هذه الخليقة فى بعض العواصم الأوروبية، ويقترن ذلك دائماً بالنزعات الجنسية على نحو من الأنحاء.

فإذا كان جميل من أصحاب هذه الخليقة فهو الهوى على تلك الصورة مفهوم، وأسباب اللجاجة فى الهوى عنده أكثر من أن تحتاج إلى مزيد.

أقبلت بثينة على وادى «بغيض» وفيه إبل جميل لترد الماء مع جارة لها، فنفرت الإبل عن المورد، فسبها جميل وسبته، فكان هذا أول التعارف بينهما وأول الغرام، ونسب بها منذ ذلك اليوم بعد أن كان ينسب بأختها أم الجسير.

وقيل إن جميلاً خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزينن ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال، فوقف على بثينة وأختها أم الجسير فى نساء من بنى الأحب؛ ورأى منهن منظرًا عجيبًا ففقد معهن وعشق بثينة، ثم راح ومعه فتیان من

بنى الأحب عرفوا فى نظره حبها ووجدوا عليه ، وقال ينسب
بها من أبيات :

عجل الفراق وليته لم يعجل
وجرت بوادر دمعك المتهلل
لن تستطيع إلى بثينة رجعة
بعد التفرق دون عام مقبل

ثم علمت بثينة أنه نسب بها فحلفت بالله لا يأتيها على
خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه .
وهنا موضع آخر للعجب أو للملاحظة :
لِمَ نسب بها وهو لا يجهل أن النسب يحول بينهما وبين
الزواج كما جرت سنة البادية التى لا تخفى عليه؟
أغلبته النزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه؟
أم هى نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأى ومطوعة الغواية
العاجلة؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضاً مقصوداً لذاته ،
لا يفكر معه فى زواج ولا اتصال؟
أيسر ما يقال فى هذا المسلك إنه مسلك لا حزم فيه ؛ وأنه
خليق أن يلقي بصاحبه فى تلك المحنة التى ابتلى بها وساق
نفسه إليها .

وقد حيل فعلا بين جميل وبثينة فلم يتزوجا ، طلبها
للزواج ، وتزوج بها رجل آخر قيل فى وصفه إنه دميم أعور
وظهر من أخباره فى قصة جميل أنه كانت له زوجة قبلها ،
وأن بثينة لم تعش معه طول حياتها ، وذلك هو نبيه بن الأسود
العذرى الذى قال فيه جميل :

لقد أنكحوا جهلا نبيها ظعينة

لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل

فهى زيجة لا تغتبط بها الفتاة وليس من شأنها أن تقطع
الصلة ما بين بثينة وجميل ، بل لعلها أحرى أن توثقها وتمكن
من عراها ، ولا سيما إذا كان الزوج مشنوءاً لفتوره وخوره وقلة
حميته وعجزه عن إرهاب غريمه ، كما كان مشنوءاً لدمايته
وتفاوت السن بينه وبين عرسه ، وكذلك كان نبيه بن الأسود
فيما وصفته لنا الروايات المختلفة كلما ألمَّ جميل بالحى وطرق
بيوت بثينة وأهلها فلم يجاوز غضب نبيه أن يشكوها إلى
أبيها وأخيها.

وكانما اتفقت الدواعى جميعاً على إطالة العلاقة بين
العاشقين فطالت ولم يقطعها معاً حتى قطعها الموت ،

وتخللها ما لا بد أن يتخللها من قرب وبعد، ولقاء وجفاء،
ووشاية وغيرة، وفرص موالية وأخطار معادية، مما نقله
إلينا الرواة أو لم ينقلوه، ومما صدقوا أو لم يصدقوا فيه، ومما
تناقضوا فى نقله ولا حاجة بنا إلى اتفاقهم عليه.

فبعض هذا التناقض يثبت القصة فى جملتها ولا ينفىها،
لأنه يرينا أنّ القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويسمعونها
من شتى المصادر، وليست بالاختراع الموضوع الذى يلفقه
قاص فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه.

وبعض هذا التناقض يرجع إلى تقديرات النقاد أو القراء فيما
يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيستبعدون
الخير الذى هو بعيد عن الحب فى تقديرهم، ويميلون إلى
اتهام الرواة فيه بالوضع أو قلة التحقيق.

من ذلك مثلاً أن صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعى
التشكيك فى قصة جميل، أنه غدر بصاحبته مرة وأن «الغدر
لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه».

فأحصى الدكتور ألوان الشكوك ومنها اللون الثانى وهو كما قال:
«شئ من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما
نفهمه، ولا كما كان يفهمه القدماء. زعموا أنّ أهل بئينة أذاعوا

فى الناس أن جمىلا لا ىنسب باىنتهم وإنما ىنسب بأمة لهم؁
فغضب جمىل لهذه المقالة وأراد أن ىكذبها؁ فواعد بثينة
والتقىا ذات لىلة فتحدثا؁ ثم عرض عليها جمىل أن تضطجع
فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم؁ فلما استوثق جمىل من ذلك
نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى
غىر بىتها فلم ىشكوا فى أنها كانت مع جمىل. وقال جمىل
فى ذلك شعراً. أتظن أن مثل هذا الخبر ىمكن أن ىكون حقاً
وأن رجلا كجمىل كان ىحب بثينة حباً كالذى نجده فى شعره
ىستطىع أن ىعرضها لمثل هذه الفضىحة؟»

فتقدىر الدكتور هنا لىب جمىل وما ىنبغى أو لا ىنبغى
لمثل حبه هو الذى أظهر التناقض فى هذه القصة وىجح به
إلى تكذىبها.

أما إذا أخذنا بتقدىر غىر هذا التقدىر فلا تناقض ولا موجب
إنن للتكذىب.

وعندنا نحن أن حب جمىل لا ىمنع أن ىعرضها لتلك
الفضىحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثرىة
التى تغنى فىها بىبها ولقائها ومناجاتها؁ ثم أرسلها فى
أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حىث قدر لها المطاف.

وجميل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسيب والقاله حتى
ليجازف فى سبيلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه
المجازفة، فينسب بها وقد علم أنّ هذا النسيب يحرمه أن
يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها. ونحن مع هذا نصدق
حبه ونصدق نسيبه ولا نقول: لو كان محباً حقاً لترك النسيب
بالمحوبة ليظفر بها ولا يفقدها.

فالتناقض فى القصة التى استشهد بها الدكتور طه تقديرى
يزول - أو يزول مؤداه - متى اختلف التقدير.

وربما اختلف التقدير فكان من أسباب تأكيد الخبر
أو ترجيحه ولم يكن من أسباب استبعاده ونفيه، لأن الرجل الذى
يشغله النسيب هذا الشغل الشاغل يكره حقاً أن يقال إنه يتغزل
بأمة شائئة وأنه مسلوب العقل مضيع الحباة فى هواها، ويهون
عليه أن يعلن حقيقة هواه ولا يهون عليه أن يحتمل هذه الوصمة
المهينة، وعلايته فى ذلك أنه لا يخشى ضرراً من الفضيحة على
من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بملاحقته لها ولم يصبها
مصاب من ذويها، غير الشكاية والزجر الذى لا يضيرها.
والزهو بعد عنصر من عناصر العشق لا سبيل إلى نكرانه
والاستخفاف بإغرائه وتحريضه.

فالعاشق قد يحتمل النكبة الفادحة ولا يحتمل الغض من مكانته فى نفس معشوقه ، والشك فى هذه المكانة هو أكبر لواعج الغيرة ، والحرص عليها هو أقوى أوامر المحبة ، وقد يجازف بمنفعته وراحته ولا يجازف بلقاء تهمة تغض من تلك المكانة وتزيلها وتسقطها عنده وعند غيره .

فجميل صاحب النسب الذى ضيع فى سبيله بثينة كلها ليس بعجيب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضيرها ، فى سبيل كرامة هواه وكرامة نسيبه وكرامة نسبه وأهله .

وقد ينبغى ذلك فى الهوى العذرى أو لا ينبغى فيه ولا فى هوى من الأهواء ، ولكن من هو العاشق الذى يعمل ما ينبغى ولا يعمل ما دونه ؟

إنه قد يريد أن يتحامى الضرر الذى يحيق به هو ولا يملك أن يتحاماها ، وقد يريد أن يدرأ الفضيحة عن نفسه ولا يملك أن يدرأها ، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغى فى عرفه وعرف الناس ، وإنما نحاسبه بما يساق إليه وبما هو مغلوب عليه ، وليس بمستبعد على مغلوب أن يعمل عملاً لا يرضاه ساعة عمله ، وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه .

ومن النقائص التى تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهوى العذرى صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى فى كلام جميل وأخباره على صفة أخرى.

فالهوى العذرى كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجسد ونزعاته، باق ما بقيت الحياة، ثم هو لا يزال قانعاً على مدى الحياة؛ بالنظر والحديث والمناجاة، وقد يتورع عن الملامسة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لهما جثمان.

وقد وصف جميل هواه على هذه الصفة فى بعض ما نسب إليه فقال:

لا والذى تسجد الجباه له مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر
وقال يصف ليلة له مع بثينة:

خليلان لم يقربا ريبه ولم يستخفا إلى منكر
وقال عباس بن سهل الساعدي: «دخلنا على جميل وهو يحتضر، فنظر إلى وقال: يا ابن سهل! ما تقول فى رجل لم يشرب الخمر ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق، وهو

يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ قلت: أظنه قد نجا. فمن هذا الرجل؟ قال: أنا... قلت: ما أحسبك سلمت وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة. فعاد يقسم: لا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة، وأكثر ما كان منى أن أسند يدها إلى فؤادي أستريح ساعة!».

ووصفوا لقاءه إياها فقالوا إنه كان إذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته إلى الجلوس فكأنه لصق بالأرض... «ثم يسلم عليها ويسألها عن حالها وتسأله هي مثل مسألته. ثم تقرب إليه جاريتهما الطعام فيأكل، وتستنشده ما قال فيها فينشدها، ولا يزالان يتحدثان لا يقولان فحشاً ولا هجراً حتى إذا قارب الصبح، ودّع كل منهما صاحبه أحسن وداع، وانصرفا وكل منهما يمشى خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا...».

وعلى ذلك انقضت السنون بعد السنين يفترقان ما يفترقان ثم يلتقيان هذا اللقاء، حتى افترقا إلى غير لقاء.

إلا أن أخباراً أخرى في سيرة جميل تصرح بمبيته عندها واضطجاعه معها، وقد صرحت قصائده غير مرة بالتقبيل والعناق كما قال:

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر

وكما قال :

كأن فتيت المسك خالط نشرها
تقل به أردانها والمرافق
تقوم إذا قامت به من فراشها
ويغدو به من حضنها من تعانق
وأشبه ذلك فى شعره غير قليل.
وربما حلف لها فى بعض شعره أنه لم «يمس جلدًا غير
جلدها» حيث يقول :

حلفت يمينًا يا بثينة صادقًا
فإن كنت فيها كاذبًا فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنى
وباشرنى دون الشعر شريت^(١)

فهى كانت تتصل به وتتهمه بالاتصال بغيرها ، وهو أيضًا
لم يكن يكتفم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها ، وله فى ذلك كلام
صريح يقول منه :

(١) الشعر : ثوب يباشر الجسد ، وشريت : أى أصبت بالشرى ، وهو طفح مؤلم
يظهر على الجلد.

تظل وراء الستر ترنو بلحظها
إذا مر من أترابها من يروقهـا

ويقول:

بثينة قالت يا جميل أربتنى
فقلت كلانا يا بثين مريب!
وأريبنا من لا يؤدى أمانة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب
بعيد على من ليس يطلب حاجة
وأما على ذى حاجة فقريب
أو يقول مبيكتاً لها:

لحا الله من لا ينفع الوعد عنده
ومن حبله إن مد غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت على بقائل
لها بعد صرم يا بثين صلينى

أو يقول مبكِّتًا نفسه :

وإن لأستحي من الناس أن أرى
رديفًا لوصل أو علىّ رديف
وأشرب رنقاً^(١) منك بعد مودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإني للماء المخالط للقدى
إذا كثرت واده لعيوف
وبلغه يوماً أن بثينة استبدلت به حجة الهاللى فقال :

فيا بثن إن واصلت حجة فاصرمى
حبالى وإن صارمته فصلينى
ولا تجعلينى أسوة العبد واجعلى
مع العبد عبداً مثله وذرينى

وحدث كما جاء فى سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت
بثينة بعده بحجة هذا ثم طلب منها حجة حين عاد جميل أن
تصارحه بتركها إياه وتغيرها عليه فقالت أو قيل على لسانها :
ألم تر أن الماء غير بعدكم وأن شباب القلب بعدك حُلّت

(١) الرنق: الكدر.

فأجابها وقد علم ما تريد :

فإن تك حُلّت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصى وعلّت^(١)

وكان لبثينة فتى من بنى عمها يتحدث إليها فاستراب به جميل وذهب يتحدث إلى غيرها ، «وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدي لصاحبه شأنه» حتى غلبه الأمر فأقبل على البيت الذى كان يجتمع فيه معها وأقبلت هى إليه ولم تبرز له ، وجعل كل منهما يطالع صاحبه ، فأنشأ يقول :

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وانى لتثينى الحفيظة كلما
لقيتك يوماً أن أثبك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها : ما أحسن الصدق بأهله ، ثم اصطلحا ، فسألته بثينة أن ينشدها قوله :

(١) القلووص : الطويلة القوائم من الإبل ، والنهل : أول الشرب ، والعلل : الشرب للمرة الثانية.

تظل وراء الستر ترنو بلحظها
إذا مر من أترابها من يروقها
فأنشدها إياها ، فبكت وقالت : كلا يا جميل ! ومن ترى أن
يروقنى غيرك؟

فتلك جملة من الأخبار المتفرقة تفضى بنا إلى نتيجة ظاهرة
وهى أنّ الهوى بين جميل وبثينة لم يكن خلواً من نزعات
الجسد ولم يكن خلواً كذلك من الشك والريبة وتهمة الخيانة
من الجانبين. فماذا نقول فى ذلك؟ أنقول إنه تناقض؟ ... نعم!
هو تناقض لا شك فيه ، ولكنه تناقض فى طبيعة العاطفة نفسها
أو فى حالاتها وتعبيراتها ، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها ،
لأنها تحصل متناقضة الحالات والتعبيرات ، وكذلك العواطف
جميعاً لا تلتزم الدقة المنطقية فى جميع الأوقات.

فجائز جداً أن يكون جميل قد أعلن براءته فى بعض
شعره ، وجائز أن يكون جميل قد كشف الحقيقة فى بعضه
الآخر ، وجائز جداً أن يكون عذرياً فيما اعتقد ونوى ، وأن
تخالطه النزعات الجسدية فيما طغى به الهوى.

ذلك كله جائز جداً وهو الذى يحصل كل يوم ولا نزال نراه
حيثما التفتنا إليه.

يحصل كل يوم أن ينوى الإنسان البراءة ويقع فى الريبة
على غير وده، ويحصل كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذلك
فى حينه ولا يكون ذلك نافياً لما حصل بل مؤيداً لما تعودنا
حصوله كل يوم، ولا سيما إذا علمنا أن صاحب القصة إنسان
لا يملك مشيئته ولا يزال محاولاً يضطرب فى محاولاته، فيود
حيناً ما يأباه فى آخر، ويستنكر فى يومه ما كان ارتضاه فى
أمسه، ولعله يعود فينكره فى غده.

وإنما نحن نفرط فى التصديق إذا فهمنا أن قبيلة من
القبائل تصف هواها بالبراءة التى لا يطرقها الزغل فيكون
هذا الوصف عاصماً لكل فرد من أفراد القبيلة، مبطلاً لكل
خبر يخالف تلك الصفة.

ونفرط كذلك فى التصديق إذا فهمنا أن الرجل ينوى الأمانة
فيكون معنى ذلك أنه لم يخالف الأمانة مختاراً أو مضطراً إلى
المخالفة، ونحن متناقضون فى هذا الفهم لأننا نلمس كل يوم
ما يناقضه ولا يستقيم فى طريقه.

فجميل وبثينة إنسانان كسائر الناس، لا نحكم على عمل من أعمالهما بالمناقضة وننفيه إلا إذا ناقض الطبيعة البشرية وكذب ما تواتر من أخبار الناس.

وكل ما يبدو لنا من أخبارهما أنهما كانا عاشقين يلج أحدهما في عشقه ويقبل الآخر منه هذه اللجاجة.

فكان جميل يتابع بثينة وكانت بثينة تقبل منه هذه المتابعة، لأنها تألفه وتؤثره على زوجها وتستعز بهيامه ونسيبه بين أترابها.

ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها، بل يجوز أنها كانت تعتمد عليه في بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذى يهواها، فكان الهوى بينهما على طباق الأرض ولم يكن بالهوى السابح فى أجواز الفضاء، وكانا إنسانين فى كل حالة من حالاتهما كما يكون كل إنسانين بدويين فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة، وعند ذلك لا نرى فى أخبارهما ما يناقض الواقع أو يستبعده العقل أو يخالف ما يجرى فى علاقات الغرام.

أما الهوى العذرى فقصاراه أنه كان أمنية لهما وأمنية لكل قبيلة تعتز بالمنعة والصيانة فى بناتها. إن جرى الواقع

بما يخالفه فهو الواقع الذى يخالف أبداً كل عرف نصبو إلى تحقيقه، فما زال من دأب المثل الأعلى – أو من دأب الأمانى الاجتماعية – أنها تراء وتخالف ولا يزال الناس يريدونها ويخالفونها، فلا ينفىها ذلك بل يدل على وجودها. وقد اتفقت أسباب شتى على تأكيد هذا العرف فى قبيلة بنى عذرة وجيرانها.

فهى قبيلة بادية توكل إليها أحياناً حراسة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شماله، ففيها طبيعة البداوة أن تعتز بالمنعة والصيانة وألا تعترف بالشبهة فى بناتها ومحارمها، وفيها رغبة الحفاظ على هذه السمعة التى تحتاج إليها وتأبى أن تمس فيها، وإلا ديس حماها وبطلت حراستها وتخطاها من يعتمد عليها.

وهى مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الإسلام وتنكر ما ينكر من إثم وتفرض ما يفرض من حدود. فليس بمباح عندها أن تتصل المرأة بغير زوجها، وليست بإباحة ذلك فعلا بمانعتها أن تنكرها وتبرأ منها فى حياتها الاجتماعية.

ونحسب أن المنعة فى العشق أو الاستعصام فى العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية، بل مصلحة

«فزيولوجية» كما نستطيع أن نسميها فى العصر الحديث، وليست بمصلحة اجتماعية فى القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شىء غيره على أتباعه.

فإذا كانت آداب العشق هى الآداب التى تكشف الفضائل النوعية فى العاشقين معاً فالاستعصام لازم فيها والتجمل بالعفة ضرورة من ضروراتها، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يشرح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار. وإذا قال اليوم بعض الثائرة المتعجلين إن العقائد القديمة هى التى كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتیان والفتيات، وأنهم خلقاء أن يحمّدوا الإباحة متى تحرروا من ربة العقائد القديمة، فهؤلاء الثائرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون.

إن الفتى والفتاة يجب أن يستعصما ولو لم يؤمنا بدين من الأديان الكتابية أو غير الكتابية، لأنهما فى دور العشق يعرضان فضائل النوع فيهما، وليس من فضائل النوع أن ينساق الفتى أو الفتاة لأول غواية، وأن تكون الشهوة هى كل ما يصبى الواحد منهما من زميله.

فالطبيعة والدين معاً يدعوان إلى العصمة بين العاشقين وينكران التدفع إلى الشهوات فى غير مساك ولا ممانعة،

وخليق أن يتأكد ذلك في القبيلة البدوية التي تهتمها المنعة وتجاوز كعبة الدين وتجرى على سنة الطبيعة، فلا يضعف فيها ذلك التوكيد إلا العارض يوهى الحوزة ويبيح المحذور، أو على انحراف يتغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه. فما اشد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض ما توجبه السنن الطبيعية.

وما جاء في سيرة جميل وبثينة خلافاً لذلك العرف أو وفقاً له فمعقول كذلك في خلافه ووفاقه، لأن مخالفة العرف شيء يقع ولا يمتنع، وشيء له أسباب في الحياة الفردية كالأسباب التي أوجبت العرف في الحياة الاجتماعية.

وقد أجملنا الإشارة إلى هذه الأسباب وتلك الأسباب، فخلص لنا منهما أن جميلاً وبثينة عاشقان طبيعيين، وأن ما جرى بينهما ورؤى عنهما لا يناقض ما يكون ولا ما كان، ولن يوجد على غير ما وصفاً، حيث وُجدا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان.